شعر الفقهاء في عصر الموحدين

(دراسة وصفيّة)

عبدالله عبدالرحمن الغويل
جامعة مصراتة – ليبيا

مقدمة:

عصر الموحدين يُعدّ من أزهى عصور علوم العربية في الأندلس، وقد نال الأدب بشعره ونثره؛ مرتبة عظيمة في هذا العصر، وكان للفقهاء دورٌ مهمٌّ في هذا الجانب، فبرز منهم كُتّابٌ وشعراء كبارٌ، شاركوا في بناء هذه النهضة الأدبية. وسأحاول في هذه العجالة، أن أقف على أهمّ ما تضمّنه شعر فقهاء هذا العصر، مبيّناً رؤيتهم في أهمّ أغراض الشعر، وما تميّز به شعرهم من ملامح. مستعيناً بعد الله تعالى، ببعض المصادر التي لها صلة مباشرة بالموضوع، والتي تنوّعت بين دواوين شعريّة، وكتبِ تراجمٍ وأدبٍ؛ نقلت إلينا أخباراً وأشعاراً لهؤلاء الفقهاء الشعراء. وقد حاولت . في هذا كله . الاختصار قدر المستطاع، بشكلٍ غيرِ مخلٍّ، فإن وفّقتُ فلله الحمد، وإن جانبني التوفيق؛ فحسبي أنّي قد حاولت، وعرفت الجديد، الذي كلّما ازداد الإنسانُ منه؛ ازداد علماً بجهله.

توطئة:

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية، نادى بها محمد بن تومرت، الذي ينحدر من أسرة بربرية، من قبيلة مصمودة، التي تعتبر من أكثر القبائل البربرية عدداً، وأشدها بأساً[1]. وبعد أن قويت دعوة ابن تومرت، وكثر أصحابه، صرح

[1] ينظر: ترجمته . مثلا . في الأعلام للزركلي، 228/6، وفي وفيات الأعيان45/5.

بدعوى العصمة لنفسه، ورفع نسبه إلى النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، وادعى أنه المهدي المنتظر، وبايعه أصحابه على ذلك سنة 515هـ، وسمّى أصحابه: الموحدين؛ تعريضاً بالمرابطين في أخذهم بالعدول عن التأويل، وميلهم إلى التجسيم[2]، وقيل: لأنهم أول من تحدّث في التوحيد، وعلم الاعتقاد في المغرب العربي، كما يقول عبدالواحد المراكشي[3]. ولم يقدّر للمهدي –ابن تومرت– أن يجني ثمار دعوته، فتوفي سنة 524هـ، ليحمل الراية من بعده تلميذه: عبدالمؤمن بن علي، المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين، الذي استطاع أن يدخل مراكش عاصمة المرابطين، سنة 542هـ، وبذلك قضى على دولة المرابطين في أفريقيا، لتبدأ مدن الأندلس السقوط في أيدي الموحدين تباعاً، حتى تمّ لهم السيطرة عليها سنة 555هـ.

وعلى يد عبدالمؤمن بن علي، تحوّلت الخلافة الموحديّة شيئاً فشيئاً؛ من إمامة دينيّة، إلى خلافة دنيوية، يتوارثها أبناؤه، مع الاحتفاظ برسوم الإمامة المهديّة[4]، وقد بلغت دولة الموحدين في عهد يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن –الملقب بالمنصور– ذروة مجدها، داخليّاً وخارجيّاً، وفي عهده كانت معركة الأراك المشهورة، التي انتصر فيها على جيش ألفونسو الثامن، في شعبان سنة591هـ، وبعد وفاة المنصور سنة 595هـ، بدأ الضعف يدخل دولة الموحدين، خاصة بعد هزيمتهم على يد النصارى، في معركة العقاب، التي كانت كما يقول الحميريّ: "أول وهنٍ دخل على الموحدين، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة"[5]، وتناوب بعد هذه المعركة على الحكم خلفاء ضعاف، لا همّ لهم إلا التنازع على العرش، واستمروا كذلك حتى موت آخرهم، وهو أبو دبّوس، الواثق، سنة 668هـ، عندما تمكّن بنو مرين من القضاء عليهم[6].

---

2 ينظر: الشعر الأندلسي، فوزي عيسى، 19.
3 ينظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، 269.
4 ينظر: الشعر الأندلسي، فوزي عيسى، 22.
5 ينظر: الروض المعطار، 416.
6 ينظرمثلا: المعجب للمراكشي، 419 ومابعدها، والحلل الموشية،161 وما بعدها.

وقد كان عصر الموحدين عصرًا زاخرًا بالنشاط الفكري؛ والأدبي والسياسي، امتدّ فترة القرن وربع القرن، فهو يمثّل فترة النضوج الفكري والثقافي والعلمي، للعرب في المغرب الإسلامي، إنه عصر ابن رشد، وابن طفيل، وابن زهر، وابن عربي[7]. أما الفقهاء في عصر الموحدين، فقد كانت لهم الصدارة، بحكم الأساس الذي قامت عليه الدولة، وبحكم طبيعة المغاربة الميّالة إلى الفقه وأهله، يقول عبدالله بن بلقين في مذكراته: "ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً؛ عامرة بالعلماء والفقهاء، وأهل الدين، وإليهم كانت الأمور مصروفة، إلا ما يلزم الملك من خاصته، وعبيده، وأجناده..، وأما ما كان بينهم من مظلمة أو قضيّة؛ وكل حكم يرجع للسُنّة، فإنما كان لقاضي البلدة[8]".

الفقهاء في عصر الموحدين، وملامح شعرهم

مفهوم كلمة فقيه:

الفقه: العلم بالشيء، والفهم له. وغلب على علم الدين؛ لسيادته وشرفه، وفضله على سائر العلم. قال ابن الأثير: واشتقاقه: من الشقّ والفتح، وقد جعله العرف خاصّاً بعلم الشريعة، وتخصيصاً بعلم الفروع منها. وقال غيره: والفقه في الأصل: الفهم.. قال الله . عزّ وجلّ . : "ليتفقهوا في الدين"[9]؛ أي ليكونوا علماء به، ودعا النبيّ . صلى الله عليه وسلم . لابن عباس، فقال: "اللهم علّمه الدين، وفقهه في التأويل"[10]، والفقه: الفطنة، قال الجوهري: قال أعرابيٌّ لعيسى بن عمر: شهدت عليك بالفقه. وكلّ عالم بشيءٍ فهو فقيه[11]. ويعرّف الجرجاني الفقه بقوله: "هو في اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه، وفي الاصطلاح: هو العلم بالأحكام الشرعية العمليّة، المكتسب من أدلّتها التفصيلية"[12].

---

7 ينظر: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، حكمت الأوسي، 3.

8 مذكرات الأمير عبدالله، 17،18.

9 سورة التوبة، من الآية 123.

10 أخرجه أحمد بن حنبل، وغيره، وهو في مسنده، 225/4، ورقمه فيه،2397، ولفظه: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل". وهو في صحيح البخاري، من دون: "وعلمه التأويل"، ينظر: الجامع الصحيح، 68/1، 48/1.

11 ينظر مثلاً: لسان العرب، وتاج العروس، مادة: (فقه).

12 التعريفات، 170.

فإطلاق كلمة الفقيه . إذن . يصدق على كل من حاز شيئاً من علوم الدين، وكان على درجة من الفهم والفطنة، لهذا نرى كتب التراجم الأندلسية؛ كثيراً ما تطلق هذا اللقب حتى على غير من اشتهر بالفقه المعروف، من شعراء وكتّاب، فقد كان لقب الفقيه شائعًا في ذلك الوقت، ويطلق على كثيرين، الأمر الذي يزيد مهمّة الباحث عن تمييز الفقهاء من غيرهم صعوبة.

ولعل إطلاق هذا اللقب على الكثيرين في الأندلس، قد جاء من النشأة الدينية السائدة على كل الطبقات، والمتمثلة في حفظ القرآن، والأخذ بعلوم الشرع منذ الطفولة. يقول مصطفى الشكعة، عن انتشار هذا المصطلح بين الأندلسيين: "لم يكن الفقيه عالم دين وحسب، وإنما كان عادة واسع الثقافة، متشعب ألوان المعرفة، آخذاً من كل منها بطرف، له مشاركة في الأدب من شعر ونثر، ولكن الصفة العلمية الأولى التي يتحلّى بها كانت صفة الفقهيّة، وكان الأندلسيون إذا أرادوا تكريم أمير عظيم؛ أطلقوا عليه لقب فقيه"[13]. ومصطلح الفقهاء يتسع لاتجاهات دينية مختلفة، ففقهاء عصر المرابطين –مثلاً– يختلفون عن فقهاء عصر الموحدين، فلكل دولة اتجاهاتها الدينية، وعلى الفقهاء ألا يظهروا إلا ما يتفق وهذه الاتجاهات.

مكانة الفقهاء في عصري المرابطين والموحدين

تقدم ما ذكره ابن بلقين في مذكراته؛ من أن الأندلس لم تزل قديماً وحديثاً عامرة بالعلماء والفقهاء، وإليهم كانت الأمور مصروفة. وهذا ما تجسّد بصورة أكبر في عهد المرابطين؛ ومن بعدهم في عهد الموحدين، وإن اختلف فقهاء العصرين في المسلك، فقد اهتم المرابطون بعلم الفروع، بينما اهتم الموحدون بظاهر النصوص؛ من قرآن كريم، أو حديث شريف، فالدولتان قامتا أساساً على نظرية دينية[14].

وقد حصل الفقهاء والقضاة على مكانة عظيمة في العصرين، خاصة أيام المرابطين، يقول إحسان عباس: "فلما كانت دولة المرابطين، وأساسها ديني، وخلفاؤها الثلاثة ذووا زهد وتبتّل وعبادة، قرّبوا إليهم الفقهاء؛ ليمنحوا الدولة الصفة

[13] الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، 97.

[14] ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين، 72.

التي يؤثرونها، فارتفع شأن هؤلاء أكثر من ذي قبل"[15]. ويصف المراكشي حكومة علي بن يوسف المرابطي بقوله: "وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء" وفي عهده كان يتم تعيين أربعة فقهاء مع كل قاض، لا يقطع أمراً دونهم، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً[16]، وقد صوّر بعض الشعراء هذه السيادة للفقهاء في عصر المرابطين، واندحار الشعر والشعراء، يقول الأعمى التطيلي[17]:

أيا رحمتا للشعر أقْوَتْ رُبُوعُه على أنه للمكرمات مناسك

وللشعراء اليومَ ثُلّث عروشُهُم فلا الفخرُ مختالٌ ولا العزّ تامك

فيا دولة الضيم أجملي أوتجاملي فقد أصْحَبَتْ تلك العرى والعرائك

و"يا قام زيد" أعرضي أو تعرّضي فقد حال من دون المُنَى "قال مالك"

وبعد سقوط دولة المرابطين، وسيطرة الموحدين، انكمش سلطان فقهاء الفروع، ليحلّ محلهم فقهاء جدد، يميلون مع مذهب الدولة الجديدة، في الأخذ بظاهر النصوص، ولا أدلّ على ذلك من فعل الخليفة الموحدي، أبو يوسف يعقوب، الملقب بالمنصور، ففي أيامه "انقطع علم الفروع، وأمر بإحراق كتب المذهب.. كمدونة سحنون، وكتاب يونس، ونوادر ابن أبي زيد، ومختصره، .. وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها"[18] كما أمر هذا الخليفة العلماء ألاّ يفتوا إلاّ بالقرآن، والسنة النبوية، وألاّ يقلّدوا أحداً من الأئمّة المجتهدين المتقدّمين[19].

ولم يمنع العهد الموحدي الجديد الفقهاء من تصدّر الواجهة، والأمثلة كثيرة، فهناك فقهاء وقضاة نالوا أعلى الدرجات الوظيفيّة، وكانوا مقربين من حكّام الدولة وأمرائها، فهذا أبو حفص الأغماتي، كان على صلة وثيقة بكلٍّ من أبي يعقوب يوسف، وابنه المنصور، فقد ذكر ابن سعيد أنه "كان فقيهاً علاّمة.. من أهل الفتيا،

15 تاريخ الأدب الأندلسي، 38.
16 المعجب في تلخيص أخبار المغرب، 235.
17 ديوانه، 93. والأعمى التطيلي هو: أحمدبن عبدالله بن هريرة القيسي، أبو العباس، نشأ في إشبيلية، توفي سنة 525هـ، ينظر: الأعلام للزركلي،158/1.
18 المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي، 354.
19 ينظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان، 11/7.

ثم صار من جلساء أصحاب الأمر، .. ثم ترقّى إلى الخطابة والقضاء، وصار ذا إبرام وإمضاء"[20]. ويذكر ابن سعيد المغربي، أنّ الفقيه موسى بن عمران المارتلي، الزاهد، وصلت به مكانته أن الملوك كانوا يزورونه ولا يلتفت إليهم[21].

وكانت المكانة التي حظي بها الفقهاء في عصر الموحدين؛ سببًا في حسد غيرهم لهم، كالشعراء الذين وجدوا في الفقهاء -خاصة الشعراء منهم- منافسًا لهم في الحظوة عند الخلفاء والأمراء، فهذا أبو العباس الجراوي، يعرّض بالكاتب والفقيه أبي الحسن بن عيّاش، ويتوعده بأنه سيلقى مصير الفقيه ابن الياسمين، الذي وُجد مذبوحًا بداره، يقول الجراوي، أو الكورائي، كما في كتاب الغصون[22]:

فليحذر الكتّابُ ما قد غاله وأخصُّ منهم الفقيه أبا الحسن

وللجراوي أيضاً أبيات في هجاء القاضي أبي حفص الأغماتي، وقاضي فاس ابن الملجوم[23].

موقف شعراء الفقهاء من المرابطين والموحدين

سار أغلب الشعراء من فقهاء العصرين؛ في ركب الدولة التي عاشوا فيها، لكننا نجد منهم من خرج عن هذا الركب، أو من غَيّر في موقفه، خاصة عند مخضرمي الدولتين، فقد كان أكثر الثائرين عند انهيار المرابطين، من الفقهاء والقضاة، وقد تكاتبوا فيما بينهم؛ يستحثُّ أحدهم الآخر على الثورة[24]. ومن شواهد هذا الانقلاب، هذه الأبيات ليحيى بن سهل اليكيّ،[25] يمدح المرابطين أيام عزهم فيقول:

[20] الغصون اليانعة، 91.

[21] المُغرب في حُلى المغرب، 406/1.

[22] ينظر: الغصون لابن سعيد الغربي، 44، والجراوي هو: أحمد بن عبدالسلام الجراوي، أبو العباس، سكن مراكش، ودخل الأندلس مرّات، وتوفي بإشبيلية سنة 609هـ، ينظر ترجمته في الأعلام،150/1.

[23] ينظر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، 364/2، 365، والغصون، 94-98.

[24] مذكرات الأمير عبدالله، 18،17.

[25] هو أبو بكر يحيى بن عبدالجليل بن سهل اليكي، ينظر: الأعلام 152/8.

قومٌ لهمْ شرفُ العُلا في حِمْيَرٍ وإذا انْتَمَوْا لَمْتُونَةٌ فَهُمُ هُمُ
لمّا حَوَوْا أَحْرَازَ كُلِّ فَضِيلَة غَلَبَ الحَياءُ عَلَيْهِمُ فَتَلَثَّمُوا

ثم يقول هاجياً لهم بعد سقوط دولتهم:

إنَّ الْمُرَابِطَ بَاخِلٌ بِنَوَالِهِ لكنَّه بِعِيَالِهِ يَتَكَرَّمُ
الوجْهُ منهُ مُخَلّقٌ بِقَبِيحِ مَا يَأتِيهِ فَهْوَ مِنَ اجْلِه يَتَلَثّمُ

وهجاهم بأبيات أولها:

في كلِّ مَنْ رَبَطَ اللِّثَامَ دَنَاءَةً ولو أنَّهُ يَعْلُو عَلَى كيوَانِ

وقد لقيه بعد ذلك أحد المرابطين، فقال له، يا فقيه، مدحتنا فبلغت غاية رضانا بقولك: قومٌ لهم شرف.. الأبيات، ثم بلغنا أنك هجوتنا بقولك: في كل من ربط اللثام.. الأبيات، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا، فقال: إني لم أقل ذلك، ولكني أقول:

إنَّ المُرَابِطَ لا يكونُ مُرَابِطاً حتَّى تَرَاهُ إذَا تَرَاهُ جَبَانا
تجلو الرعيّة مِنْ مَخَافَةِ جُورِهِ لجلائه إذ يلتقي الأقرانا
إن تظلمونا نَنْتَصِفْ لنفوسنا يجلى الرجال فنأخذ النسوانا(26)

ونجد هذا الانقلاب في الموقف؛ عند بعض الفقهاء الذين مدحوا الموحدين أول الأمر، ثم انصرفوا عن مدحهم، بل ربما تطرّقوا أحياناً إلى هجائهم، ومن هؤلاء، الرصافي البلنسي(27)، الذي مدح الموحدين بقصائد كثيرة، أظهر فيها ولاءه للموحدين، وفرحته بنجاح دعوتهم، منها قصيدته المشهورة، في مدح عبدالمؤمن بن علي، والتي مطلعها(28):

لو جئتَ نارَ الهُدَى مِنْ جانبِ الطُّورِ قَبَسْتَ مَا شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ ومِنْ نُورِ

وفي قصيدة أخرى يقول فيه(29):

---

26 ينظر في كل ماتقدم عن اليكي: نفح الطيب،205/3، 206، والمُغرب في حُلى المغرب، 266 وما بعدها.

27 هو أبو عبدالله محمد بن غالب، الرقّاء البلنسي، توفي سنة 572، ينظر ترجمته في الأعلام للزركلي، 324/6، له ديوان شعر، هو من ضمن مصادر هذا البحث.

28 القصيدة في ديوانه، 87.

29 نفسه، 83.

فتىً من قيسِ عيلانٍ تلاقى   على سيمائه كرمٌ ونُورُ
تضيئ به البلادُ إذا تجلّى   وتغرق في مكارمه البحور
تشبّهت الملوك به وحاشا   وذلك منهم غيٌّ وزور

لكننا نجده ينصرف بعد ذلك عن مدحهم، مؤثرًا العفاف، وصون ماء الوجه، يقول[30]:

صون الفتى وجهَه أبقى لهمّته   والرّزق جارٍ على حدٍّ ومقدار
قَنعْتُ وامتدّ مالي فالسماء يدي   ونجمها درهمي والشمس ديناري

بل نراه يعرّض بالموحدين، ويصفهم بخبث النفس، يقول[31]:

عجبت من معشرٍ تُمطي مآثرهم   من الثناء عليها ظهر طيّار
ما بالهم رقدوا في لين عيْشِهِمُ   عن جارهم وهو محبوس بإقتار
ما كان أقدرهم أن يأخذوا لكمُ   على البديه من الأيام بالثار
والحرّ أكثر ما يزري بحاجته   توسّط من خبيث النفس خوّار

ويقول أيضاً[32]:

يقول أناس: لو رفعت قصيدة   لأدركت حتمًا في الزمان بها أمرا
متى أرسلتْ أيدي الملوك هِباتِها   ولم يُوصلوا جاهًا ولم يُجزلوا ذخرا
فقد سرّني أني حرمتُ عُلاهمُ   حُلىً محكماتٍ تُخجِل الأنجم الزّهرا

أخلاق الفقهاء في عصر الموحدين

الفقهاء كباقي البشر، منهم المحسن، ومنهم المسيء، والفقهاء في عصر الموحدين؛ كغيرهم من الفقهاء في سائر الأزمان، وقد عرفنا كثيرًا من أخلاق فقهاء هذا العصر؛ من خلال المصادر التي ترجمت لهم، ومن خلال أشعارهم، وما وصفهم به الآخرون من علماء وشعراءَ وكتّابٍ، وقد أظهرت هذه المصادر أخلاقًا متفاوتة للشعراء الفقهاء، فمنهم من وُصف بالفضل والوقار، ومنهم من اتُّهِمَ بقبيح

30 نفسه، 99.
31 نفسه، 98، 99.
32 نفسه، 77.

الأفعال، من خلال أقوال وأشعار الفقهاء أنفسهم؛ في كثير من الأحيان، كقول الفقيه، يحيى اليكي، في ذمّ الفقهاء[33]:

ثماني خصال للفقيه وعرسه وثنتان والتحقيق بالمرء أليق
ويكذب أحياناً ويحلف حانثًا ويكفر تقليدًا ويُرْشى ويسرق

وقد اشتهر هذا الفقيه بكثرة الهجاء المقذع، وهذا لا يليق بالفقهاء[34]، ومن ذلك قوله في هجاء الوالي، مظفّر (الخصيّ)، وفقيه اسمه، الزّناتيّ، كان قد شهد ضدّ الشاعر:[35]

أرشوا الفقيه الزناتي ببيضة يَشْهَدْ بأنّ مظفرًا ذو بيضتين

فهو يتهم الفقيه الزناتيّ بأخذ الرشوة، وأنه في سبيل ذلك مستعدّ حتى لشهادة الزور.
وهذا الشاعر الأبيض الإشبيليّ، يقول في الفقهاء المرائين[36]:

أهلَ الرِّيَاءِ لبستمُ ناموسكم كالذئب يُدْلِجُ في الظلام العاتم
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالك وقسّمتمُ الأموال بابن القاسم
وركبتمُ شُهب البغال بأشْهَب وبأصْبُغ صُبِغَتْ لكم في العالم

وقد تبدو في شعر هؤلاء الفقهاء أمور مخالفة للورع، كالغزل بالمذكر، ووصف الخمر، كما هو الحال عند الفقيه ابن لبال الشريشي،[37] والرصافي البلنسي، ففي ديوانيهما الكثير من الأشعار التي تناولت مثل هذه الأمور، وإن كانا معروفين بكريم الصفات، يقول ابن لبال، في الغزل بالمذكر[38]:

---

33 ينظر: المغرب في حلى المغرب، 267/2.

34 حتى أنّ ابن سعيد المغربي سمّاه: "حّطيئة دهرنا" المُغرب، 266/2.

35 ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري، 324/3.

36 ينظر: نفح الطيب، 449/3،448. والأئمة الذين ذكرهم، هم الإمام مالك بن أنس، أحد الإئمة الأربعة، ت 179هـ، الأعلام257/5. والآخرين هم من أعلام المذهب المالكي، فأشهب: هو أشهب بن عبدالعزيز القيسي، فقيه الديار المصريّة، ت 204هـ، الأعلام،333/1. وابن القاسم: هو عبدالرحمن بن القاسم المصري، روى عن الإمام مالك، ت 191هـ، الأعلام، 323/3. وأصبغ: هو أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع، من كبار فقهاء المالكية بمصر، ت 225هـ، الأعلام، 333/1.

37 هو أبو الحسن، علي بن أحمد ابن لبال، الشريشي، يرجع نسبه إلى بني أميّة، تولّى القضاء، ت 583هـ، الأعلام، 256/4.

38 ينظر: ديوانه، 86، تحقيق: محمد بن شريفة.

لا مثل ضمّي عليّاً وهو يُتحفني   سلافةً هي بُرْء العاشق الدنف
عانقتُه ورداء الوصل يجمعنا   حتى الصباح عِناق اللام للألف

ويقول الرصافي البلنسيّ، في غلام حائكٍ وسيمٍ، من مقطوعة طويلة:[39]

قالوا وقد أكثروا في حبّه عذلي   لو لم تهِمْ بمذال القدر مبتذل
فقلت لو أنّ أمري في الصبابة لي   لاخترت ذاك ولكن ليس ذاك لي

يقول جامع ديوان ابن لبال: "ولكننا نظنّ أنّه قال ما قال، إمّا رياضة في القول، ومجاراة للغير، أو أنّه سلك في ذلك مسلك الملامتية، ولا يّتصوّر في الرجل غير هذا؛ لأنّ الشهادات على ورعه متواترة"[40].

أمّا الرصافي البلنسيّ، فيصفه إحسان عباس، –محقق ديوانه– بقوله: "وقد أحرز في مالقة –وخاصّة بعد أن علت به السّنّ نسبيّاً– صورة الشيخ العاقل المحبوب، الساكن الوقور، الحسن السمْت، الطويل الصمت، المنصرف إلى حرفته، الذي يأبى أن يغتاب أحدًا، أو يرفع صوته غاضبًا، حتى ولو أساء الآخرون إليه"[41]. وأسهب ابن خميس المالقيّ، في ذكر شمائل الرصافي، عندما ترجم له[42].

ظهور مفردات الفقهاء وعباراتهم، في شعر فقهاء الموحدين

يرى ابن خلدون أنّ الملَكة الشعريّة؛ إنما تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة، بحفظ الأسجاع والترسيل، والفقيه، بمخالطة الفقه، وتنظير المسائل وتفريعها، وتخريج الفروع على الأصول، وكذا سائر العلوم. وللنفس في كلّ واحد منها لون تتكيّف به. ويرى ابن خلدون أنّ الفقيه قاصر في البلاغة؛ بسبب ما سبق إلى محفوظه من العبارات الفقهيّة، الخارجة عن أسلوب البلاغة، والنازلة عن الطبقة العالية[43]. ويذكر ابن خلدون مثالاً على ذلك، هو ما أخبره به الكاتب، أبو القاسم بن رضوان، عندما أنشد أحمد بن شعيب، مطلع قصيدة الفقيه ابن النحوي، دون أن يذكر له اسمه، وهو:

---

39 ينظر: ديوانه، 116.
40 ينظر: ديوان بن لبال، ص51.
41 ينظر: مقدمة الديوان، ص20.
42 ينظر: أدباء مالقة، لابن خميس المالقيّ، 68 وما بعدها.
43 ينظر: المقدمة، 796–797.

لم أدرِ حين وقفت بالأطلال   ما الفرق بين جديدها والبالي؟

فقال ابن شعيب على البديهة: هذا شعر فقيه، من قوله: ما الفرق؟ إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب[44]. يقول إحسان عباس: "ومردّ هذا الحكم –في النظر– إلى مبدأ قد شاع في المغرب والمشرق، وهو أن ألفاظ أصحاب كل حرفة؛ تغلب على أشعارهم[45]". وهذا ما أكده أيضاً الصلاح الصفدي، بقوله: " وكل من قال الشعر غلب على معانيه ما يعانيه من الفنون.. هذا الشيخ صدر الدين بن الوكيل، لمّا كان الفقه يغلب على فنونه، نجد كلامه في الغالب إذا خلا من القواعد الفقهيّة؛ ينحطّ عن رتبة الحسن[46]". وقد وردت ألفاظ الفقهاء وعباراتهم في شعر فقهاء الموحدين؛ على شكلين:

الشكل الأول: ما كانت العبارات والمفردات الفقهيّة فيه صريحة وواضحة، ويتجلى هذا في الأشعار التي احتوت إجابات عمّا كانوا يُستفتون فيه، ومن ذلك ما قاله ابن لبال الشريشيّ، عندما سأله سائل عن حكم أكل لحم الآدميّ ميّتاً؛ لمن اضطر إلى ذلك، فقال[47]:

وإذا اضطررت لآدميٍّ ميّت   فلتهربن منه هروب الآبق

فالمالكيّ يرى سواء أكله   مع قتله، هذا كلام الصادق

والشافعيّ يرى مباحاً أكله   للبائس المضطر خيفة عائق

يعتامه من جوعه فلربما   يغتاله فيموت ميتة فاسق

وينتقد في أبيات أخرى عمل الخرّاصين، المبالغين في تقدير المحاصيل الزراعيّة، يقول[48]:

يا من أتى يَخْرُص الزيتون فارغة   ويستدلّ على ما فات بالورق

أتعلم الغيب دون الناس كلهم   لا والذي خلق الإنسان من علق

44 نفسه، 797.

45 تاريخ النقد الأدبي، 623.

46 الغيث المنسجم، 207/1.

47 ديوانه، 87.

48 ديوانه، 87.

وإنما أنت فيها تستدلّ به كثاقب الدّرِّ في داجٍ من الغسق
فتب إلى الله واحذر من عواقبه من يركب البحر لا يأمن من الغرق

الشكل الآخر: ما كانت العبارات والمفردات الفقهية فيه؛ خفيّة بين ثنايا الكلام، وهذا النوع كثير في شعرهم، فقد ترددت في أشعارهم عبارات ومفردات فقهيّة كثيرة، مثل: هب، هبْني، هاك منّي، حرام، حلال، مباح، دليل، مستقصي، تتبعتها، قالوا فقلت، الطهارة، النجاسة، الدَّيْن، الضمان،.. وغيرها كثير. وقد تتبّعت عبارة، (قالوا.. فقلت) عند الرصافي البلنسي، في ديوانه الصغير، فوجدتها قد تكررت عشر مرّات، منها قوله يصف غلاماً زنجيّاً اقتطع غُصنًا من شجرة لوْزٍ منوّرة[49]:

وزنجيّ ألمَّ بنوْرِ لوزٍ وفي كاساتنا بنت الكروم
فقال فتىً من الفتيان: صِفْهُ **فقلت**: الليل أقبل بالنجوم

ونجد ألفاظ الفقهاء قد دخلت جميع أغراض شعرهم، فهذا يحيى بن سهل اليكي، يقول هاجياً[50]:

أعِدِ **الوضوء** إذا نطقت به مستعجلاً من قبل أن تنسى
واحفظ ثيابك إن مررت به فالظلّ منه **يُنجّس** الشمسا

وفي المدح، يقول الرصافي[51]:

الحمد لله حمد العارفين به قد نوّر القلبَ إسلام وإيمان ..
موت العِدا بالظُّبا **دَيْنٌ** وإنْ **مطلت** به سيوفك فالأيّام **ضُمَّانُ**

وفي الغزل، يقول ابن لبّال[52]:

فبِتْنا وما تحت الوساد **محرّم** علينا، وما فوق الوشاح **مباح**

ومن الأبيات التي ازدحمت فيها مفردات الفقهاء، قول ابن لبال، ملغِزاً[53]:

---

49 ديوانه، 126.

50 ينظر: نفح الطيب، 345/3، والمُغرب في حلى المغرب، 267/2.

51 ديوانه، 128.

52 ديوانه، 80.

53 نفسه، 88، السبيئة الأولى: هي الشاة المسلوخة، يُقال: سبأت الجلد؛ إذا سلخته. والسبيئة الأخرى: الخمر.

سبِيئتان اثنتان هذي حِلٌّ مباحٌ، وذي حرام
قل لذوي العلم: خبّروني ما الحلّ منها وما الحرام؟

ظهور أثر التشيّع في شعر فقهاء الموحدين

قامت دولة الموحدين . كما أشرت سابقاً . على أساس دينيّ؛ يظهر فيه أثر التشيّع، حيث صرّح مؤسسها ابن تومرت؛ بدعوى العصمة لنفسه، وادّعى أنّه المهدي المنتظر، بعد أن كان يُلقّب بالإمام، وقد ظلّ هذا الفكر الشيعيّ فيمن خلفه في الحكم، واستغلّ ذلك مُدّاحُهم من الشعراء، فأدخلوا في أشعارهم كثيراً من ألفاظ التشيّع، مثل: المهدي، الإمام، العصمة، والألفاظ الدالّة على النور، وغير ذلك. وظلّت الدعوة إلى التشيّع قائمة في دولة الموحدين؛ إلى أن أعلن أحد خلفائها، وهو المأمون بن المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن، أنه يتبرّأ مما كان يدّعيه ابن تومرت، من المهدويّة والعصمة، ولعنه على المنابر، وسفّه أحلام الأشياخ الذين كانوا يساندونه على تلك الأباطيل[54]. وفي ذلك يقول أبو عمر ميمون الخطّابي، معرّضاً بابن تومرت:[55]

وجد الخلافة حلّة مطويّة لا يستطيع الخلق نسج مثالها
فأسرّ حسواً في ارتغاءٍ يبتغي بمحاله نسجاً على منوالها

وقد شارك فقهاء الموحدين في هذا النوع من الشعر، الذي يحمل ملامح التشيّع، فهذا الفقيه القاضي، أبو حفص الأغماتي[56]، يمدح الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن، بقصيدة يستهلّها بمقدّمة ذات نزعة شيعيّة، يركّز فيها على الرقم سبعة، الذي هو شعار الشيعة السبعيّة[57]، يقول أبو حفص[58]:

---

54 ينظر: أزهار الرياض، 380/2، والحلل الموشية، 164.

55 هو أبو عمر، وقيل: أبوعمرو، ميمون بن علي الخطابي، المعروف بابن خبّازة، وهو ابن أخت الشاعر المعروف بابن خبّازة، توفي سنة 637هـ، ينظر ترجمته: في الأعلام، 341/7، والأبيات في أزهار الرياض، 379/2.

56 هو عمر بن عبدالله بن محمد السلمي، ولد بأغمات بالمغرب، وولي القضاء في عدّة مدن مغربية وأندلسيّة، توفي بإشبيلية، 603هـ، الأعلام، 52/5.

57 تنسب الفرقة السبعيّة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وسمّيت بذلك؛ لأن أهلها يُنْهُون الإمامة إليه، وهو الإمام السابع عندهم، ينظر: الأعلام للزركلي، 34/6، وقيل غير ذلك، ينظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي، 120.

الله حسبك والسبع الحواميم　　تغزو بها سبعة وهي الأقاليم
سبع المثاني التي لله قُمت بها　　عليك من نصرها نصٌّ وتقديم
وأنت بالسبع السور الطوال على　　كل الورى حاكم بالله محكوم
والدهر سبعته وسبعة جعلت　　جواد مالك والمنصور مخدوم
وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقة　　بوعد ربّك هيهات التناجيم
سمو بنفس على السبع الشداد سمت　　فينا وتمّ لها زلفى وتكريم

وفيها يقول:

إنّ الخليفة سرّ الله ظاهرة　　آياتُه وهو عند الله معلوم
فؤاده بضياء العلم منشرح　　ووجهه بجمال النور موسوم

ومنها قوله:

يا سامعين أماديح الإمام ألا　　فاجثوا على رُكَبِ الإعظام أو قوموا

فالفقيه الأغماتي، أكثر في قصيدته من ذكر عبارات ذات نزعة شيعيّة، فتكلم عن الإمامة، واستعمل كثيراً من الألفاظ التي تدل على معنى النور. ونجد في ديوان الفقيه الشاعر الرصافي البلنسي؛ عديد الألفاظ والعبارات التي تتسم بنوع من التشيّع، ولعلّ قصيدته التي مدح بها الخليفة عبدالمؤمن بن علي؛ عند نزوله بجبل الفتح خير دليل على ذلك[(59)]، فقد بدأها بقوله:

لو جئتَ نار الهدى من جانب الطور　　قبسْتَ ما شئتَ من علم ومن نور

ومنها:

نُور طوى الله زَنْدَ الكون منه على　　سِقْطٍ إلى زمن المهديِّ مذخور

ومنها:

كفاه فضلاً[(60)] أنِ انتابت مواطئَه　　نعْلا مليكٍ كريم السعي مشكور
مُسْتنشِئاً بهما ريح الشفاعة منْ　　ثرى إمامٍ[(61)] بأقصى الغرب مقبور

---

[58] القصيدة في أزهار الرياض، 362/2.
[59] القصيدة في ديوانه،87 وما بعدها.
[60] أي، جبل الفتح، الذي نزل به الخليفة الموحدي.
[61] يقصد بالإمام، المهدي بن تومرت.

ما انفك آملَ أمرٍ منه بين يدي يوم القيامة محتوم ومقدور
حتى تصدّى من الدنيا على رمق يستنجز الوعد قبل النفخ في الصور

ومنها:

فإن يكن بيد المهديّ قائمه فموضع الحدّ منه جدٌّ مشهور
والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت فتاه يوشع قمّاع الجبابير

وله أيضاً في مدح عبدالمؤمن بن علي[62]:

فتى من قيس عيلانٍ تلاقى على سيمائه كرمٌ ونُور
تضيئ به البلاد إذا تجلّى وتغرق في مكارمه البحور

يقول إحسان عباس عن الرصافي البلنسي، في قصيدته: لوجئت نار الهدى..، بأنه "قد استغلّ في قصيدته المعاني الدينيّة؛ ليُعبّر عن جذوة متّقدة حائرة في نفسه، فتكلّم عن الهدى، وجبل الطور، وقصّة موسى وفتاه يوشع، متمثلا فيهما صورة المهدي بن تومرت؛ وفتاه عبدالمؤمن، وانبثت المعاني الدينيّة في القصيدة كلّها، حتى ليخيّل إلينا أنّ الرصافي كان يلتمس المنقذ في عبدالمؤمن[63]".

أهم الأغراض الشعرية التي طرقها الشعراء الفقهاء

طرق الشعراء الفقهاء في هذا العصر؛ أغراض الشعر المختلفة، ولكن بدرجات متفاوتة، فنجد أن أكثر شعرهم كان في وصف الطبيعة، والحنين إلى الأوطان؛ أو الديار المقدّسة، وفي المكاتبات، أمّا الهجاء فهو قليل عندهم، ويرجع ذلك إلى مكانتهم في المجتمع، وكذلك إلى المبدأ الذي قامت عليه دولة الموحدين؛ من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[64]، لا إلى عجز فيهم عن ولوج هذا الباب، فهذا الرصافي البلنسيّ، كان قد جرى بينه وبين عبدالرحمن السهيلي[65]، ما اقتضى أن قال الرصافي[66]:

---

62 الديوان، 83.

63 مقدمة ديوان الرصافي البلنسي، 15.

64 ينظر: المعجب، 254.

65 هو عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد الخثعمي، السهيلي، الضرير، حافظ، عالم بالعربية، والسِير، له عدّة تصانيف، منها: الروض الأُنُف، ولد في مالقة، وتوفي بمراكش ينظر: الأعلام، 313/3.

66 الديوان، 50.

عفا الله عنّي فإني امرؤٌ أتيت السلامة من بابها
على أنّ عندي لمن هاجني كنائن غصّت بنشّابها
ولو كنت أرمي بها مسلماً لكان السهيلي أولى بها

وكان من الطبيعي أن يغلب عليهم الإحساس الديني، إلى جانب عنصر الطبيعة، التـي نراها تـدخل جميـع الأغراض، حتـى تكـاد تُنسينا الغرض الأساسـي، يقـول الرصافي البلنسي، في وصف الخمر[67]:

أدِرْها فالغمامة قد أجالت سيوف البرق في لِمَمِ البطاح
وراق الروض طاووساً بهيّاً تهبّ عليه أنفاس الرياح
تقول وقد ثنى قزح عليه ثيابَ الغيم مُعْلمة النواحي
خذوا للصحو أهبتكم فإنّي أعرْتُ المُزن قَادِمَتَيْ جناح

ويقول ابن لبال[68]:

ومدامة لبست غِلالة نرجس وتنفّست في الكأس أيّ تنفس
باكرتُها والورد يُوقظه الندى وتبُلُّ خدّيه عيون النرجس
والشمس تنظر من وراء غمامة لبست من الكافور أحسن ملبس

فانظر كيف طغت الألفاظ الدالة على الطبيعة، فلم نجد من ألفاظ الخمر في أبيات الرصافي؛ إلاّ كلمة: أدِرها، أو الصحو، التي نازعتها الطبيعة فيها. ولم نجد في أبيات ابن لبال؛ إلاّ كلمة: مدامة! ونحن قد ننكر على الفقهاء أوّل الأمر؛ طرقهم لبعض الأغراض، كالخمريّات، والغزل، خاصّة بالمذكّر، أو ذكر مفاتن الجسد، فهذه أمور تخالف الورع، وسمت الفقهاء، إلاّ أنّنا إذا وقفنا على مضامين هذه الأغراض؛ زال كثير من هذا الإنكار؛ لأنها قيلت من باب الأريحيّة، وعلى سبيل الرياضة في القول، ومجاراة الآخر. وسيتضح ذلك من خلال تناول أهمّ أغراضهم الشعريّة؛ بشيء من التفصيل.

---

[67] نفسه، 52.
[68] الديوان، 85.

1. الحنين في شعر الفقهاء

يكثر الحنين في شعر فقهاء العصر الموحدي، وهذا راجع إلى بروزه عند الأندلسيين بصفة عامة في ذلك الوقت، نظراً للظروف التي تعرّضوا لها، خاصة بعد معركة العُقاب، التي هُزم فيها الموحدون، فبلغ شعر الحنين في القرن السابع الهجري أوجه، وأصبح مرآة تعكس واقعَ الأندلسيِّ وحياتَه[69].

وقد أخذ الحنين في شعر هؤلاء الفقهاء صوراً شتّى؛ فنجد عندهم الحنين إلى الوطن، والحنين إلى الأراضي المقدّسة، والحنين إلى أيام الصبا والشباب. ولعلّ أكثر من يمثل الشكل الأول منهم، هو الرصافي البلنسي، فقد قال عنه إحسان عباس، محقق ديوانه: "أكثر شعره في الحنين إلى وطنه بلنسية[70]"، ويقول عنه فوزي عيسى: "برز الرصافي في شعر الحنين، وعليه قامت شهرته[71]" وقد تنبه القدماء -أيضا- إلى ذلك، يقول ابن الأبّار: "وخرج من وطنه، فكان يكثر الحنين إليه، ويقصر أكثر منظومه عليه[72]"، وقد عبّر الرصافي عن هذا الحنين بطرق عدّة، فتارة بتذكر الماضي وذكرياته جميلة، وأحياناً يسلك في حنينه مسلك شعراء البادية؛ فيتخيل خليلا له، أو خليلين يناجيهما[73]. ومن ذلك قوله يتشوّق إلى بلنسية، وكان قد خرج منها صغيراً [74]:

خليليَّ ما للبيد قد عبقت نشْرا وما لرؤس الركْبِ قد رُنِّحت شُكرا
هل المسك مفتوتاً بمدرجة الصبا أم القومُ أجْرَوْا من بلنسية ذكرا
خليليَّ عوجا بي عليها فإنه حديثٌ كبرد الماء في كبدي الحرَّى
قفا غير مأموريْنِ ولتصديا بها على ثقة للغيث فاستسقيا القطرا
بجسْر معانٍ والرصافةِ إنه على القطر أن يسقي الرصافةَ والجسرا

69 ينظر: الحنين في الشعر الأندلسيّ، 11-34.
70 مقدمة الديوان، 23.
71 الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، 285
72 التكملة، 238/3، نقلا عن: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، 285.
73 ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، 286.
74 ديوانه، 67، وما بعدها.

وهي طويلة، وصلت في ديوانه إلى اثنين وثلاثين بيتاً، ملأها وصفاً لطبيعة بلده بلنسيَّة، وشوقاً إليها، ومنها أيضاً قوله:

بلنسيّةٌ تلك الزبرجدة التي   تسيل عليها كل لؤلؤة نهرا

وقوله:

ولم أطْوِ عنها الخطو هجراً لها إذاً   فلا لثمت نعلي مساكنها الخضرا

ويقول في مناسبة أخرى[75]:

ولا كالرصافة من منزل   سقته السحائب صوب الولي

أحنُّ إليها ومَنْ لي بها   وأين السّريّ مِنَ الموصل

ويرى فوزي عيسى أن كثيراً من شعره في هذا الباب قد ضاع، فديوانه لا يضمّ غير سبع قصائد، أغلبها مبتور[76]. وليس الرصافي وحده من عرف بهذا اللون؛ من شعراء الفقهاء في هذا العصر، فهذا ابن لبال الشريشي، يحنّ إلى إشبيلية، التي قضى فيها أجمل أيام عمره، والتي كانت تُعرف بحمص، كما هو الشأن في كثير من المدن؛ والمناطق التي سمّيت بأسماء مشرقيّة، يقول[77]:

سلام على حِمْصٍ وإن غيّرَ البِلى   معاهد منها نِلْتُ فيها الأمانيا

وحُقّ لها منّي السلام لأنني   وَرَدْتُ بها ماء الشبيبة صافيا

أمّا الحنين إلى الديار المقدّسة، فهو ينسجم مع تديّن الفقهاء وورعهم، يقول ابن لبال[78]:

سلامٌ ولا أقرا سلام على هند   صرفت إذاً مسْراي عن مسلك الرشد

على قمر لو أطلعته يدُ الثرى   لقصرّ عن لألائه قمر السعد

وفيها يقول:

فطوبى لمن أضحى يمرّغ لوعة   بتربة ذاك القبر خداً على خدِّ

---

75 ديوانه، 118، والسّري، هو الشاعر السري الرّفاء، فقد عاش هو الآخر أكثر عمره بعيداً عن موطنه في الموصل، وهذا يعني أن الشاعرين يجمعهما البعد عن الوطن، والحرفة، فكلاهما كان رقّاءً.

76 ينظر: الشعر الأندلسي، 285.

77 ديوانه، 91.

78 ديوانه، 81.

وما أنشد المشتاق إن هبّت الصبا: "ألا يا صبا نجدٍ متى هِجت من نجد"[79]

وقال في قصيدة حجازيّة[80]:

يا نائمين على الأكوار وَيْحَكُمُ شدّوا المطيّ بذكر الله في السحر

أما سمعتم بحَادِينَا وقد سجعت وُرْقُ الحمائم فوق الأيك والسُّمر

هذي البشارة يا حُجّاج قد وجبت غداً تحطّون بين الركن والحجر

ويبدو أنّ كثيراً من شعر ابن لبال في هذا الجانب قد ضاع، فقد ذكر ابن سعيد المغربي؛ في ترجمته لابن لبال، أنّ له أمداحاً وتشوّقاً في النبيّ، صلى الله عليه وسلم[81].

وفي الحنين إلى أيام الصبا والشباب، يقول الرصافي[82]:

لبسنا بها ثوب الشباب لباسها ولكن عَرِينا من حُلاه ولم تعرى

أمنزلنا عصر الشبيبة ما الذي طوى دوننا تلك الشبيبة والعصرا

وأكثر ابن لبال من الشكوى من الكبر، وظهور الشيب، في أكثر من موضع من ديوانه، يقول[83]:

لمّا تقوّس مني الجسم عن كبرٍ وابيضّ ما كان مسودّاً من الشعر

جعلت أمشي كأنّي نصفُ دائرة تمشي على الأرض أو قوسٌ بلا وتر

2. المكاتبات والمراسلات في شعر فقهاء الموحدين:

تذكر الكتب التي ترجمت لهؤلاء الفقهاء، أخباراً كثيرة عن مخاطبات ومراسلات كانت بينهم وبين معاصريهم من فقهاء وشعراء وكتّاب، شهدت لهم بمثانة أدبهم، وظهرت فيها براعتهم وإجادتهم، ونجد ذلك أيضاً في الدواوين التي جمعت لبعضهم، فكثيراً ما نرى في هذه الكتب أو الدواوين، عبارات مثل: وكان بينه وبين فلان مكاتبات وأشعار ومداعبات، أو، وكتب يوماً إليّ فلان. وممن

---

79 هذا العجز مضمن، وهو صدر بيت لابن الدُّمينة، وعجزه: فقد زادني مسراك وجْداً على وجْدِ.

80 ديوانه، 84.

81 المُغرب في حُلى المغرب، 304/1.

82 ديوانه، 68.

83 ديوانه، 84، وينظر: له مثلها في الشكوى من الكبر والشيب، ص82، 89، 90، 91.

عُرف بكثرة هذه المكاتبات من الفقهاء، ابن لبال، الذي يصفه صاحب الذيل والتكملة، بقوله: "كانت بينه وبين جماعة من أدباء عصره؛ مخاطبات أدبية، نظماً ونثراً، تدلُّ على مثانة أدبه[84]". ويذكر جامع ديوانه أنّ أكثر شعره في الإخوانيّات، ويُعدّد مجموعة من الذين كانت بينه وبينهم مكاتبات[85]، وكان من أبرزهم الرصافي البلنسي، الذي له قصيدة رائية، يجيب فيها على رائيّة مفقودة لابن لبال، يقول الرصافي في أولها[86]:

حباني على بُعْد المدى بتحيّة   أرى غُصُني رَطْبَ المهزِّ بها نَضْرا
برائيّة لم أدر عند اجتلائها   هي الدّرّ منظوماً أم الزّهْرُ مفترّا

وفيها يقول:

فلو آب ريعان الصّبا ولقاؤكم   إذاً قضت الأيام حاجتنا الكبرى
فإن لم يكن إلا النوى ومشيبنا   ففي أيّ شيءٍ نستعطف الدهر

ولا يخفى ما في هذين البيتين، من حنين وشكوى. ومن إخوانيات ابن لبال، قوله يخاطب الأديب أبا الوليد القسطلي[87]:

وتراءى أبو الوليد فخرّت   لسناه كواكب الجوزاء
ورقى رتبة الوزارة حتى   حلَّ تاجاً بمفرق الوزراء

وقال يخاطب الفقيه القاضي، أخيل[88]:

سائل بغرّته الهلال المقمرا   أشذىً تفاوح عَرْفه أم عنبرا..
قاض أتى والحقّ غصن ذابل   فسقاه ماء العدل حتى أثمرا

---

84 الذيل والتكملة، لأبي عبدالله محمد بن عبدالملك، 170/1.

85 ينظر: مقدمة الديوان، 51.

86 ديوانه، 75.

87 ديوانه، 79.

88 ديوانه، 83، والقاضي أخيل: هو أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي، كاتب نابه الذكر، كان جواداً بليغاً، عمل كاتباً للمرابطين، وتولى قضاء قرطبة في عهد الموحدين، ثم قضاء إشبيلية، وبها توفي سنة560هـ، الأعلام، 278/1.

وممن اشتهر من شعراء الفقهاء بكثرة إخوانياته، الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي[89]، فقد ذكر له ابن خميس المالقي؛ في ترجمته، عدّة مراسلات شعرية بينه وبين معاصريه، ومن أهمهم، أبو محمد عبدالوهاب، ومن هذه المراسلات . التي أخذت شكل الفكاهة في أكثرها . الأبيات التي بعث بها أبو محمد عبدالوهاب، إلى أبي الحجاج، الذي غاب عنه بعد أن اشترى كرْماً، يقول أبو محمد[90]:

أصلحك الله، مُذْ بدا الكرْمُ أعرضت عنّا ومالنا جُرْمُ

بنْتُ العناقيد وحدها حرمت ما لأب فيما علمته جَرَمُ

فكتب إليه أبو الحجاج:

والله ما كان ذا من خُلُقي وأن تشأ سلْ فهذه جرم

كم كلّفتني سويقة فأتى منه الحلال الكثير الحرم

أمّا الرصافي ، ففي ديوانه الصغير، الذي وصل إلينا، عشر مقطعات في المراجعات الإخوانيّة، شكّلت ثُمن ديوانه، منها [91]ما كان بينه وبين أبوبكر الكُتُندي[92]، فقد كتب إليه أبوبكر بقصيدة أولها:

أعندكم يا ساكني الودِّ أنّكمُ بمرأىً على بُعْد المسافة من حِمص

فجاوبه الرصافي بقصيدة أولها:

سلام أبا بكر عليك ورحمة تحيّة صدق من أخٍ لك مُختصّ

3. وصف الطبيعة:

حبا الله الأندلس بطبيعة جميلة، فهي خضراء، تكسو أرضها الأشجارُ والزروع والأزهار، وتشقها الأنهار والجداول الكثيرة، مع جوّ معتدل، يقول ابن خفاجة[93]:

---

89 توفي أبوالحجاج سنة604هـ، ينظر ترجمته: في أدباء مالقة، لابن خميس، 401 وما بعدها.

90 كل ما ورد من مراسلات لابي الحجاج مع غيره هنا، فهي من كتاب أدباء مالقة، 403 وما بعدها

91 ديوان الرصافي البلنسي، 102، 103.

92 هو أبو بكر محمد بن عبدالرحمن بن عبدالعزيز الأزدي، الغرناطي، أديب، شاعر، لغوي، توفي سنة 583هـ، ينظر: الوافي بالوفيات، 192/3، وأدباء مالقة، لابن خميس، 85. يقول ابن خميس: "وكان صاحباً لأبي عبدالله الرصافي، ولأبي علي بن كسرى، وبينهم بمالقة مقامات أدبيّة، ومجالس شعريّة، وارتجالات نبيهة".

يا أهل أندلس لله درّكمُ ماء وظلّ وأشجار وأنهار
ما جنّة الخلد إلا في دياركمُ وهذه كنت لو خيّرت أختار
لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تُدْخل بعد الجنّة النار

وقد أثرت هذه الطبيعة في شعراء الأندلس، على مختلف عصورهم، وبيئاتهم، فغلب على شعرهم التغنّي بهذه الطبيعة؛ حيّها وجامدها، فذكروا الرياض والأزهار والأشجار، وذكروا البروق والمزن والنسيم، وذكروا الحمائم والطاووس، والنجوم والهلال والبدور. وغير ذلك. ولم يكن الشعراء الفقهاء في العصر الموحدي؛ بمعزل عن شعراء قطرهم، فقد شكّل الوصف . وخاصة وصف الطبيعة . ظاهرة عندهم، فنراه يدخل جميع الأغراض، ويغيب معه . في كثير من الأحيان . الغرضُ الأساسي في القصيدة. ومن الأمثلة التي تتزاحم فيها مفردات الطبيعة، عند هؤلاء الشعراء الفقهاء، قول ابن لبال[94]:

بنفسيَ هاتيك الزوارق أُجريت كحلبة خيل أولاً ثمّ ثانيا
وقد كان جيد النهر من قبل عاطلا فأمسى بها في ظلمة الليل حالِيا
عليها لزهْر الشمع زهر كواكب تخال بها ضمن الغدير عواليا
ورُبّ مُثار بالجناح وآخرٍ برجلٍ يُحاكي أرنباً خاف بازيا

وقال ابن لبال، يصف البَهَار؛ وهو النرجس[95]:

وبهارٍ يحكي كؤوس لجيْن حملتها أناملٌ من زبرجد
سامرتها الكواكب الزهر حتّى سمرت وسْطها كواكب عسجد

ويقول القاضي أبو الوليد القسطلي[96]:

---

93 ديوان ابن خفاجة، 117. وابن خفاجة: هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة، الهواري، الأندلسي، ولد، 450هـ، وتوفي،533هـ، وهو من كبار شعراء الأندلس، ينظر: الأعلام للزركلي، 57/1.

94 ديوانه، 90.

95 ديوان ابن لبال،82.

96 ينظر: مقدمة ديوان ابن لبال، 52، والقسطلي: هو أبو الوليد يونس بن محمد، شاعر أندلسي، ومن الكتّاب المصنفين، رحل إلى المشرق، توفي سنة 576هـ، الأعلام، 263/8.

وفوق الدّوحة الغنّا غدير   تلألأ صفحةً وصَفَا قرارا
إذا ما انصبّ أزرقَ مستطيلا   تدوَّرَ في البحيرة واستدارا
يجرّده فمُ الأنبوب صلتاً   حساماً ثمّ يُفلته سوارا

أمّا الرصافي البلنسيّ، فيصفه إحسان عباس، بأنه اختار الطبيعة الهادئة الجميلة، يُقرنها بالصداقة، وذكريات الشباب، والجمال الهادئ، وأنه تأثر في وصف الجبل بابن خفاجة[97]. يقول الرصافي في وصف جبل الفتح، الذي نزل به عبدالمؤمن بن علي[98]:

لله ما جبل الفتحين من جبل   معظّم القدر في الأجبال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس   له الغيم جيب غير مزرور
معبّراً بذراه عن ذرى ملك   مستمطر الكفّ والأكناف ممطور
تُمسي النجوم على إكليل مفرقه   في الجوّ حائمة مثل الدنانير

وقد يتكلّف كثيرًا من الألفاظ الدّالة على الطبيعة، في أبيات قليلة، بشكل أراه يفسد الغرض، ويذهب برونق الشعر، ومن ذلك قوله[99]:

لا ومسك اللُّمَى وورد الخدود   ما نهار اللقا كليل الصدود
لا ولا الزهر مثل دُرِّ الثنايا   لا ولا السُّمر مثل بان القُدود
لا ولا البدر مثل صبح المحيّا   لا ولا الند مثل ختم النهود
إن يكن ذا فقد عَلِقْتُ غزالا   علقت عينه بصيد الأسود

فانظر كم جمع في هذه الأبيات القليلة من أشكال الطبيعة؛ حيّها وجامدها.

4. المدح عند الشعراء الفقهاء، في العصر الموحدي:

تميّزت قصيدة المديح في عهد الموحدين؛ بشيوع روح المبالغة والغلو، واتسامها بالروح التومترية وتعاليمها التي كانت تبطن شيئاً من التشيّع[100]، وتميّزت كذلك بتغذية المدح بصورٍ ومعانٍ دينيّة، مستوحاة في كثير من الأحيان،

97 ينظر: مقدمة ديوان الرصافي البلنسي، 25.
98 ديوانه، 92.
99 ديوان الرصافي البلنسي، 66.
100 ينظر: المُعجب، للمراكشي، 255.

من قصص القرآن، والسيرة النبويّة، كما تميّز هذا المدح بكثرة استعمال الكلمات والألفاظ الدالّة على معنى النّور. وقد تناول الشعراء من الفقهاء هذا الغرض بمضامينه الجديدة، وجاء مدحهم متنوّعاً، فمدحوا الخلفاء والوزراء، ومدحوا القضاة والفقهاء، على أن منهم من مدح خلفاء الموحدين وولاتهم؛ أوّل الأمر، ثمّ تخلّى عن مدحهم، كالرصافي البلنسيّ، الذي صار يعتقد من باب اعتزاز الفنّان بنفسه، وثقته بدوره، أنه يستطيع أن يحرم الملوك أكثر مما يستطيعون هم أن يحرموه؛ لأنّ في يده وسائل التخليد[101]، يقول:

فقد سرّني أنّي حرمت عُلاهُمُ   حُلىً محكماتٍ تُخجل الأنجم الزهرا

وهو الذي استقبل في بداية حياته؛ عبدالمؤمن بن علي، في جبل الفتح، بقصيدته التي أولها[102]:

لو جئتَ نار الهدى من جانب الطور   قبسْتَ ما شئت من علْمٍ ومن نور

وقد مثّلت هذه القصيدة مضمون قصيدة المدح؛ في هذا العصر، فبرز فيها الإفراط في المدح، كقوله:

يُومي له بسجودٍ كلّ مَحْرَكَةٍ   منها ويوليه حمداً كلّ تصديرِ

وكذلك روح التشيّع، كقوله:

فإن يكن بيد المهديّ قائمه   فموضع الحدّ منه جدٌّ مشهورِ

وتظهر فيها المعاني الدينيّة، المستوحاة من القرآن، كقوله:

والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت   فتاه يوشعَ قمّاعَ الجبابيرِ

وتتجلّى المبالغة في المدح عند الرصافيّ، في وصف الممدوح بصفاتٍ تخرجه عن بشريّته، كقوله في قصيدة يمدح بها الوزير أبا جعفر الوقشيّ[103]:

لمحلّك الترفيع والتعظيم   ولوجهك التقديس والتكريم

ولراحتيْك الحمد في أرزاقنا   والرّزق أجمع منهما مقسوم

---

101 ينظر: مقدمة الديوان، 17.

102 ديوانه، 87، وما بعدها.

103 ديوانه، 120، والوقشيُّ: هو أبو جعفر أحمد بن عبدالرحمن، وزير من الدُّهاة، له علم بالأدب، نسبه في كنانة، توفي سنة 574هـ، الأعلام، 146/1.

ويقول في آخرها:

من كلّ ذي تاجٍ تَعِلَّةُ قصده مَرْآكَ والإلمامُ والتسليمُ

ونجد هذه المعاني للمدح؛ تتكرّر عند فقيه آخر، هو الفقيه أبو حفص الأغماتي، خاصّة في قصيدته التي استهلّها بمقدمة ذات نزعة شيعيّة، يمدح فيها الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن:

الله حسبك والسبع الحواميم تغزو بها سبعةً وهي الأقاليم

ومنها:

فؤاده بضياء العلم منشرحٌ ووجهه بجمال النور موسوم

وتظهر المبالغة في المدح عنده كذلك، في قصيدته التي مدح بها الخليفة المنصور الموحدي، بعد انتصاره في معركة الأراك، يقول(104):

أطاعتك الذوابل والشِّفارُ ولبّى أمرك الفلكُ المدار

وقد كان الشعراء من الفقهاء يتبادلون قصائد المدح فيما بينهم، وقد مرّت بنا بعض الشواهد على ذلك، في مطلب المكاتبات والمراسلات الشعرية بين الفقهاء. مما سبق يمكن القول إن الأغراض الأربعة السابقة؛ كانت هي أهمّ الأغراض التى طرقها شعراء الفقهاء في عصر الموحدين، ولهم كذلك أشعار في أغراض أخرى، كالخمريات، والغزل، خاصة بالمذكر، وقليل في الرثاء، طغى عليها في كثير من الأحيان عنصر الطبيعة، خاصة في الغزليّات والخمريّات، أمّا الزهد، فإننا نجد أن بعض الفقهاء قد أكثر منه، كما هو الحال عند الفقيه، أبي الحجاج يوسف البلوي، الذي يصفه ابن خميس المالقيّ، بقوله: "وهو الفقيه الفاضل الزاهد الورع"(105).

الخاتمة

نصل في نهاية هذا البحث إلى أنّ دور الفقهاء في عصر الموحدين؛ لم يكن بالدور القليل أو الهيّن، فهو لا يقلّ عن دورهم في عهد المرابطين، فقد قامت دولة الموحدين كذلك على الجانب الديني، وإن اختلفت الرؤى بين الدولتين، فاختلفت

104 ينظر: الغُصون، 96.

105 أدباء مالقة، 401.

المسالك تبعاً لذلك بين فقهاء العصرين. وقد استطاع الفقهاء الوصول إلى أعلى المراتب؛ بسبب ما كان يتمتّع به أكثرهم، من سعةٍ في العلم، وبسطة في الأدب، من خلال إعدادٍ جيّدٍ يبدأ من سنّ الطفولة، لهذا الغرض، ورأينا كيف وصلت مكانة هؤلاء الفقهاء إلى الحدّ الذي كان سبباً في حسد الآخرين لهم، خاصة الشعراء؛ الذين وجدوا في الفقهاء منافساً لهم؛ في الحظوة عند الخلفاء والأمراء. وأظهرت دراسة مضمون شعر فقهاء الموحدين، ما تميّز به هذا الشعر من ظهور مفردات الفقهاء وعباراتهم فيه، وبروز أثر التشيع في ثناياه، متأثرين في ذلك بدعوة الموحدين القائمة على العصمة والإمامة.

وقد طرق الشعراء الفقهاء في هذا العصر؛ أغراض الشعر المختلفة، ولكن بدرجات متفاوتة، فنجد أنّ أكثر شعرهم كان في المكاتبات والمراسلات، ووصف الطبيعة، والحنين إلى الأوطان؛ أو الديار المقدّسة، وفي المديح الذي اتّسم بالمبالغة في المدح. أمّا الهجاء فهو قليل عندهم، وكذلك الرثاء، الذي كان مع قلّته خالياً من صدق العاطفة، ولوعة الفراق. وأمّا ما في شعرهم من وصف للخمر ومجالسها، وما فيه من غزل وخاصة بالمذكّر، فأغلب الظنّ أنّه كان من باب الأريحيّة؛ والرياضة في القول، كما قال كثير من الباحثين قديماً وحديثاً، وقد طغى على هذه الخمريات والغزليّات؛ عنصرُ الطبيعة حتى لا نكاد نتبيّن معه الغرض الأساسي.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية قالون عن نافع المدني.
- أدباء مالقة، مطالع الأنوار، ونزهة البصائر والأبصار..، لمحمد بن خميس المالقي، تحقيق: صلاح جرار، دار مؤسسة الرسالة، بيروت، دار البشير، عمّان، ط1، 1999م.
- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، حكمت علي الأوسي، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، ط4، بيروت،1979م.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقّري، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرون، مطبعة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940م.
- الأعلام، قاموس، خيرالدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002 م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، السيّد محمد الزَّبيدي، طبعة حكومة الكويت.
- تاريخ الأدب الأندلسي،(عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1974م.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، عمّان، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الخامس، 2011م.
- التعريفات، السيّد الشريف الجرجاني، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2000م.
- تلبيس إبليس، للحافظ جمال الدين عبدالرحمن، ابن الجوزي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م.
- الحُلل المُوشِيَّة في ذكر الأخبار المُراكشِيّة، لمؤلِّف أندلسي، من أهل القرن الثامن الهجري، تحقيق: سهيل زكّار، وعبدالقادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الغرب، ط1، 1979م.
- الحنين في الشعر الأندلسي، (القرن السابع الهجري) محمد أحمد دقالي، دار الوفاء، لِدُنيا الطباعة والنشر، الإسكندريّة

- ديوان ابن خفاجة، دار صادر، بيروت، 1961م.
- ديوان ابن لبال الشريشي، تحقيق: محمد بن شريفة، ط1، 1996م.
- ديوان أبي العباس، الأعمى التطيلي، جمعه: محمد باقر عبدالغني، ترجمة: سعاد محمد خضر، مكتبة الرائد العلمية، ط 1، عمّان، 2004م.
- ديوان الرصافي البلنسي، تحقيق: إحسان عباس، دار الشروق، ط2، 1983م.
- الذيل والتكملة؛ لكتابي: الموصول والصلة، تأليف: أبي عبدالله محمد بن عبدالملك، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1965م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبدالمنعم الحِمْيَرِي، تحقيق: إحسان عباس، ط2، بيروت، 1984م.
- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، دار الوفاء لِدُنْيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2007م.
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، ط3، عمّان، 2008م.
- صحيح البخاري، تحقيق: مُحبّ الدين الخطيب، المطبعة السلفيّة، القاهرة، 1400هـ.
- الغصُون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار المعارف بمصر.
- الغيث المنسجم في شرح لاميّة العجم، خليل بن أيبك الصفدي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1975م.
- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق: نخبةٍ من الأساتذة، دار المعارف بمصر.
- مذكرات الأمير عبدالله، آخر ملوك بني زيزي بغرناطة، المسمّاة بكتاب التِبْيان، نشر وتحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر.
- مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م.
- المُعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبدالواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963م.

- المُغْرِب في حُلَى المَغرب، لابن سعيد المغربي، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، القاهرة.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2001م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تأليف: أحمد بن محمد المقّري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤط، وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2000م.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر.